بريطانيا العظمى

الأستاذ أبو الفتوح عطيفة

وبعد فحيرة :

لعل السؤال التالى يجول بخاطرك أيها القارئ الكريم : من يحكم إنجلترا ؟ أهو مليكها أم رئيس الوزراء أم مجلس العموم أم مجلس اللوردات ؟ وأنا أجيبك عن هذا السؤال فأقول : إن مجلس العموم هو الذى يحكم إنجلترا ؛ ذلك أن مجلس العموم يمثل الشعب البريطانى أصدق تمثيل ، ورئيس وزرائها لا يستطيع أن يبقى فى مركزه يوما واحدا إذا قبض هذا المجلس عنه ثقته ، وإذن فمصدر السلطات جميعا هو الشعب البريطانى ، وأما ملك إنجلترا فإنه حسب التقاليد يملك ولا يحكم ، وأما مجلس اللوردات فهو مجلس تقليدى ليس له من الأمر شئ

وأحب أن أضرب للقارئ مثلا عن الديمقراطية فى بريطانيا وهو مثل قريب جدا إلى الأذهان، ولكنه يبين لنا إلى أى حد يعتبر مجلس العموم ممثلا للشعب البريطانى ، ويوضح أيضا مدى الحرية التى يختار بها هذا الشعب نوابه وممثليه . إننا جميعا نذكر أن مستر تشرشل زعيم حزب المحافظين كان رئيسا للوزارة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وإننا نذكر أيضا ذلك المجهود الجبار الذى قام به حتى أنقذ بريطانيا من أشد أزمة مرت بها فى تاريخها ، ومع هذا فعقب انتهاء الحرب ١٩٤٥ أجريت الانتخابات لمجلس العموم وأدار دفتها مستر تشرشل ، وسقط مرشحوه أى مرشحو المحافظين ونجح مرشحو حزب العمال وأحرزوا الأغلبية فى مجلس العموم ، فانتقلت الوزارة من يد تشرشل الكافح العظيم والمناضل الكبير إلى يد مستر أتلى زعيم حزب العمال لأن الشعب يرغب فى ذلك ، ولم يطعن المستر تشرشل فى نزاهة الانتخابات طبعا ، ولم يرم الشعب البريطانى بالجحود وبنكران الجميل ، وسلم بالأمر الواقع طائعا مختارا !

ومثال آخر أحب أن أسوقه للقارئ الكريم . دعى مستر تشرشل لحضور مؤتمر بوتسدام فى صيف ١٩٤٥ باعتباره مندوبا عن بريطانيا — وكان هذا المؤتمر يضم مندوبى الدول العظمى ، ولكن مستر تشرشل لم يذهب إلى المؤتمر بمفرده ، بل اصطحب معه المستر كلمنت أتلى زعيم المعارضة ورئيس حزب العمال . لماذا ؟ لأن إنجلترا كانت مقبلة على انتخابات ، وربما جاءت الانتخابات بما لم يشته مستر تشرشل — وهذا ما حدث فعلا — وانتقلت الوزارة إلى العمال ، وإذن فيجب أن يكون زعيم العمال على علم بما يجرى فى المؤتمرات الدولية

وهكذا نرى أن بريطانيا تعتبر بحق زعيمة الدول الديمقراطية . إن جميع أفراد الشعب البريطانى البالغين رجالا ونساء ينتخبون ممثليهم أو نوابهم إلى مجلس العموم فى حرية تامة ، وهؤلاء النواب هم الذين يقيمون الوزراء وبدون تأييدهم تسقط الوزارة ، وإذن فالشعب البريطانى ممثلا فى نوابه هو الذى

متعددة ، فإن الغايات يجب أن تكون كما يريد أقسام كبيرة من الجنس البشرى . فإذا عرفت السلوك الحق بأنه هو الذى يزيد دخلى الخاص ، فإن الفقراء لن يوافقوا ، وإن القسوة كلها فى أية حجة أخلاقية لتكمن فى جزئها العلمى ، أعنى فى البرهان على أن نوعا من السلوك أكثر من سلوك آخر وسيلة لغاية مرغب بشدة . ولكنى أميز بين الحجة الأخلاقية والتربية الأخلاقية ، فالأخيرة تتوقف على تقوية رغبات معينة وإضعاف أخرى ، وهذه عملية مختلفة تماما ستناقش وحدها فى مكان آخر

ونستطيع الآن أن نشرح بدقة أكثر معنى تعريف الحياة السعيدة . الذى بدئ به هذا الفصل فحين قلت إن الحياة السعيدة تتألف من الحب الذى تهدى إليه المعرفة ، كانت الرغبة التى دفعتنى هى الرغبة فى أن نعيش حياة أطول ما يمكن ، وأن نرى الآخرين يعيشون نفس الحياة . والإقناع المنطق فى هذا القول هو أنه فى مجتمع يعيش فيه الناس فى هذه الصورة ، سترضى رغبات أكثر من مجتمع آخر ، فيه ـ ب أقل ومعرفة أقل ، وأنا لا أعنى أن مثل هذه الحياة « فاضلة » أو عكسها « رذلة » لأن هذه تصورات يبدو لى أن ليس فيها تأييد على

عبد الجليل السيد حسن

بحكم بريطانيا

وتعتبر بريطانيا أعرق الأمم الدستورية الحديثة ، ولكني أحب أن أذكر أيضا أن الأنظمة الدستورية قامت لأول مرة في التاريخ في بلاد اليونان وكان ذلك منذ آلاف السنين ، ومازالت الأنظمة الديمقراطية اليونانية تعتبر خير مثال للديمقراطية . وكذلك أحب أن ألفت النظر إلى أن النظام الحكومي الذي قام في الإسلام منذ قيام الدولة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين كان نظاما ديمقراطيا سليما ، فقد كان الخلفاء ينتخبون كما ينتخب رؤساء الجمهوريات في عصرنا الحالي تقريبا ، وكانت سلطتهم مقيدة بقيدها القرآن الكريم وهو دستور المسلمين وخوف الخلفاء من المولى سبحانه وتعالى . استمع إلى قول عمر بن الخطاب وقد طلب إليه أن يرشح ابنه عبد الله ضمن المرشحين للخلافة بعده « يكفي بني الخطاب أن يحاسب منهم عمر . » وإلى قوله « والله لو عثرت بغلة بأرض العراق لسئل عمر عنها يوم القيامة . لم لم يعبد لها الطريق ؟ » وهكذا كان الوازع الديني أكبر مقيد لسلطة الخليفة. كانوا يستشيرون الصحابة في مهام الأمور بل إن النبي صلوات الله عليه كان يفعل ذلك؛ وقد خاطبه المولى سبحانه وتعالى قائلا « وشاورهم في الأمر »

ولعل مما يعطينا فكرة عن الديمقراطية الإسلامية أن نقرأ خطبة أبي بكر عقب انتخابه خليفة « أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن كنت على حق فأعينوني، وإن كنت على باطل فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم . »

وأحب أن أذكر أيضا أن المبادئ التي تقوم عليها الديمقراطية الحديثة وتفخر بها الحضارة القائمة قد جاء بها الإسلام الحنيف ، فقد قرر الإسلام الحرية والإخاء والمساواة بين الناس جميعا لا فرق في ذلك بين عربي أو حبشي . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١) » . لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. (٢) « إنما المؤمنون إخوة » فهل يعترف علماء الغرب بهذه الحقائق الواضحة

(١) ـ قرآن كريم
(٢) ـ حديث شريف

وهل يرد الفضل لأهله ؟

على أننا حين نعرض لتاريخ الديمقراطية الحديث لابد من أن نعترف بأن بريطانيا تعتبر أعرق الأمم الديمقراطية الحديثة ، فقد سعى الشعب البريطاني الى تقييد سلطة ملوكه وحكامه منذ بدء العصور الوسطى ، فقد كان الأشراف يحكمون الولايات والمقاطعات وكانت هناك مجالس نيابية بدائية في القرى (٣) والمقاطعات (٤) وقد تطورت هذه المجالس ونشأ منها مجلس يمثل الشعب البريطاني ويعرف بمجلس العقلاء Witan (٥)

وقد حدث بعد هذا أن دخلت بريطانيا في الديانة المسيحية الكاثوليكية وسرعان ما قام نضال بين الملوك والكنيسة حول الاستئثار بالسلطة مما اضطر الملوك إلى الاستعانة بالأشراف لمقاومة نفوذ الكنيسة وبدأ بذلك قيام العهد الإقطاعي في إنجلترا

الفتح النورمانزي

في عام ١٠٦٦ غزا وليم الفاتح دوق نرمنديا في فرنسا إنجلترا وهزم ملكها « هارولد » في موقعة « هستنجس » وأصبح ملكا لإنجلترا . وقد أراد وليم أن يقضي على سلطة الأشراف فجمع الفلاحين وحلفوا له يمين الولاء والطاعة ولكن الملوك الذين جاءوا بعده كانوا ضعافا . وكان الملك جون (يوحنا) ملكا ضعيفا ميالا إلى الظلم والغدر فقد أملاكه في فرنسا فثار عليه الشعب وخاصة الأشراف ورجال الدين وأرغموه على أن يوقع « العهد الأعظم » The magne Carta ١٢١٥ وأهم الحقوق التي اكتسبها الشعب بمقتضى هذا العهد :

١ : لا يجوز للملك أن يقبض على شخص أو أن يسجنه أو ينفيه أو يصادر أملاكه أو يحرمه من حقوقه إلا إذا حوكم أمام محكمة مؤلفة من نظرائه . وفي هذا تحديد لسلطة الملك وبدء قيام نظام المحلفين

٢ : لا يجوز للملك فرض ضرائب جديدة بدون موافقة البرلمان وفي هذا تحديد لسلطة الملك التشريعية

(٣) ـ Village moot
(٤) ـ Shire moot
(٥) ـ Witan معناها رجل عاقل A Wise man

٣ : ليس للملك أن يعبث بالعدالة فينكر حق فرد أو يؤخره

على أن نصوص العهد الأعظم لم تكن واضحة جلية ولذلك اختلف الملك والشعب فى تفسيرها وحاول كل منهم أن يفسرها لمصلحته ؛ وقد استطاع الشعب أن يتوسع فى هذا التفسير حتى أصبحت هذه الوثيقة تعتبر أساس حرية الشعب البريطانى

وجدير بى أن أذكر بهذه المناسبة أن الدستور البريطانى دستور غير مكتوب، وأنه عبارة عن حقوق اكتسبها الشعب ولا يمكن للملك أن يرجع فيها بتاتا . ومن الطريف أن أذكر أن ملك إنجلترا كان له حق رئاسة مجلس الوزراء ثم حدث أن تولى عرش إنجلترا أمير ألمانى لم يكن يعرف اللغة الإنجليزية فحضر بعض جلسات المجلس ، ولكنه لم يكن يفهم شيئا مما يدور فى المجلس ، وبذلك امتنع عن حضور جلسات المجلس ، ومنذ ذلك التاريخ فقد ملك إنجلترا حقه فى رئاسة جلسات مجلس الوزراء

وأعود إلى مواصلة البحث فأقول إنه منذ عام ١٢١٥ والشعب البريطانى دائب على كسب حقوقه ، وكلما حاول أحد الملوك الخروج على نصوص العهد الأعظم ثار الشعب فى وجهه . وقد أراد هنرى الثالث فرض ضرائب جديدة فثار الشعب. وفى ١٢٦٥ اضطر هذا الملك إلى دعوة برلمان يضم نوابا من الأشراف ورجال الدين وفارسين عن كل مقاطعة، وبذلك أصبح البرلمان ممثلا لجميع عناصر الأمة وقد وافق الملك على أنه لابد من دعوة البرلمان للاجتماع ثلاث مرات كل عام على الأقل

وفى عهد الملك إدوارد الأول انقسم البرلمان إلى مجلسين : مجلس عموم ومجلس لوردات . وفى عام ١٤٥٥ قام نزاع بين أسرة لنكستر وأسرة يورك وقامت الحروب المعروفة باسم حرب الاوردتين وانتهى الأمر بفوز أسرة تيودور (لنكستر) بعرش إنجلترا ١٤٨٥

عهد أسرة تيودور

امتاز عهد هذه الأسرة بتوقف النزاع بين الملوك والبرلمان ، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب؛ أهمها رغبة الشعب فى السلم بعد هذه الحروب الطويلة ، وانصرافه إلى طلب العلم والمال وتكون مستعمرات فيما وراء البحار ، ولمعرفة ملوك التيودور للخلق البريطانى ولأنهم لم ينكروا حق البرلمان ، فكان البرلمان يعمل وفق رغباتهم وبذلك انقضى عهدهم فى سلام، وأهم تغيير حدث فى عهدهم هو فصل كنيسة إنجلترا عن البابوية فى روما

على أن أعضاء البرلمان فى نهاية عهد هذه الأسرة أخذوا يناقشون الملكة إليصابات ويجادلونها وقد اضطرت الملكة أن ترد على أحدهم قائلة : « إنكم لم تأتوا إلى هنا لتناقشوا ولكن لتوافقوا »

You have not come here to discuss but to agree

على أن هذه الملكة قد ماتت دون وارث ١٦٠٣ وانتقل عرش إنجلترا إلى جيمس السادس ملك اسكتلندا الذى تولى عرش بريطانيا باسم جيمس الأول ، وبذلك تم اتحاد إنجلترا واسكتلندا تحت تاج واحد ، وبدأ عهد أسرة استورت الذى امتاز باحتدام النضال بين الملك والبرلمان

أبو الفتوح عطيفة
مدرس أول العلوم الاجتماعية
بسنود الثانوية

ظهرت اليوم الطبعة الثامنة منقحة
من كتاب
آلام فرتر
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك
وهى القصة العالمية الواقعية الرائعة الخالدة
للشاعر الفيلسوف
« جوته » الألمانى .